شرح الأربعين النووية

الحديث العاشر

إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ

اللقاء الثالث عشر

الحديث العاشر:

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ –ﷺ– :"إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّباً وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِيْنَ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً) (المؤمنون: الآية51)، وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) (البقرة: الآية172) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ،وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لذلك" رواه مسلم.

ترجمة الراوي:

☒ الإمامِ الفقيهِ، المجتهدِ الحافظِ، صاحبِ رسولِ اللهِ – ﷺ – أبي هريرةَ عبدِ الرَّحمنِ بنِ صخْرٍ الدَّوسي –رضي الله عنه–.

☐أسلمَ متأخِّراً وما صاحبَ رسولَ الله – ﷺ – إلا أربعَ سنواتٍ فقط إلّا أنه سبقَ فِئاماً أسلموا قبله، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ من يشاء.. كان اسمهُ في الجاهليةِ عبدَ شمسٍ، فسماهُ النبيُّ – ﷺ – عبدَ الرحمن وقيلَ سماهُ عبدَ الله.

☐أبو هريرة –رضي الله عنه–، حمَل عن النبي – ﷺ – علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه لم يُلْحق في كثرتِهِ، حتى بلغَ ما رواه من الأحاديثِ خمسةَ آلافٍ وثلاثَمائةٍ وأربعةً وسبعين حديثاً، كما ذكر الحافظ الذهبي –رحمه الله–.

أسلم –رضي الله عنه– في السنة السابعة للهجرة وعمره يزيدُ عن الثلاثين بقليل، ومنذُ أسلم لازمَ رسولَ الله – ﷺ – في مدخله ومخرجه ومسجده، وجميع مجالسه، فلا عجب أن يكون بهذه الملازمةِ أكثرَ الصحابة روايةً عن رسول الله – ﷺ –.

وقد حدَّث عن نفسه فقال: "إنكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثرُ الحديثَ عن رسول الله – ﷺ – وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يحدِّثون مثله! وإنَّ إخواني من المهاجرين كان يَشغلُهم الصفْقُ بالأسواق، وكان إخواني من الأنصار يشغلهم عملُ أموالهم، وكنت امرأً مسكيناً من مساكين الصُّفة، ألزمُ رسولَ الله –ﷺ–على مَلءِ بطني، فأحضُر حين يغيبون، وأعي حين ينسون، ثم قال: وإنَّ رسول الله – ﷺ – قال: ألا تسألني من هذه الغنائم التي يسألُني أصحابُك؟ قلت: أسألُك أن تعلمني مما علمك الله، فنزعَ نَمِرَةً كانت على ظهري، فبسَطها بيني وبينه، حتى كأنّي أنظرُ إلى القملِ يدُبُّ عليها، فحدثني حتى إذا استوعبتُ حديثَه، قال اجمعها فَصُرْها إليك، ففعلت فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ مَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ" (رواه البخاري).

ودعته عائشةُ أمُّ المؤمنين يوماً فقالت له: "يا أبا هريرة، ما هذه الأحاديثُ التي تبلُغنا أَنَّكَ تُحدِّثُ بها عن النبي–ﷺ–هل سمعتَ إلا ما سمعنا؟! وهل رأيتَ إلا ما رأينا؟"، فقال: "يا أمَّاهُ، إنه كان يشغلُك عن رسول الله –ﷺ–المرآةُ والمِكْحَلة والتصنُّع لرسول الله –ﷺ–، وإني والله ما كان يشغلني عنه شيء". (روى ذلك الحاكم وصححه ووافقه الذهبي).

ولم يبلغ أبو هريرة –رضي الله عنه– هذه الرُّتبةَ العظيمةَ من الرواية والدِّراية إلَّا بالتَّعبِ والجوعِ والنصَبِ، وصَدَقَ القائلُ: لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حتَّى تلْعَقَ الصَّبِرَ.

ولقد حدَّثَ –رضي الله عنه– عن شيءٍ من الشدَّةِ التي لَقِيَها في ذلك، فقال: خرجتُ يوماً من بيتي إلى المسجد، فوجدت نفراً فقالوا: ما أخرجكَ؟ قلت الجوعُ، فقالوا: ونحنُ واللهِ ما أخرجَنا إلَّا الجوعُ، فمضينا فدخلنا على رسول الله –ﷺ– فقال: "ما جاءَ بكُم هذهِ الساعةِ؟ فأخبرناهُ، فدعا بطبقٍ فيه تمرٌ، فأعطى كلَّ رجلٍ منا تمرتين، فقال: "كلوا هاتين التمرتين واشربوا عليهما من الماء، فإنهما ستجزيانِكم يومَكم هذا"، قال: فأكلتُ تمرةً وخبَّأتُ الأخرى، فقال: يا أبا هريرة لمَ رفعتَها؟ قلت لأمِّي، قال: "كُلْها فسنُعطيكَ لها تمرتين" (رواها البيهقي في شعب الإيمان، وذكرها الذهبي في السير بإسناد حسن).

وكان يجتهد في العبادة شكراً لله على هذه النِّعم:

قال أبو عُثمان النَّهْدي: "تَضَيَّفتُ أبا هريرة سَبعاً فكان هو، وامرأَتُه، وخادِمُه، يعْتَقِبون اللَّيلَ أثلاثاً: يصلي هذا، ثم يوقَظُ هذا فيصلي، ثم يوقَظُ الثالث".

وقال عكرمة: "كان أبو هريرة –رضي الله عنه– يسبِّح كلَّ يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحةٍ ويقول: أُسبِّح بقدر دِيَتي أفتَكُّ بها نفسي من النار".

وكان –رضي الله عنه– يصوم الاثنين والخميس.

وكان متصدِّقاً مِعطاءً، حتى إنَّ مروان بنَ الحكم بعث إليه مِائةَ دينارٍ ذهباً، فلما كان من الغد أرسل إليه يقول: إنَّ خادمي غلِط فأعطاك الدنانير، وأنا لم أُرِدْك بها وإنما أردت غيرَك، فأُسْقِطَ في يدِ أبي هريرة، وقال: أخرجتُها في سبيل الله، ولم يبِت عندي منها دينار، فإذا خرجَ عطائي من بيت المال فخُذْها منه، وإنما فعل مروانُ ذلك ليختبرَهُ، فلما تحرَّى الأمرَ وجده صحيحاً.

ومع كلُّ ذلك.. لما نزل به الموتُ بكى فقيل: ما يُبكيكَ؟ قال: "ما أبكي على دنياكم هذه، ولكن على بُعدِ سفري وقِلَّةِ زادي وأني أمسيتُ في صُعود مَهبِطُه على جَنَّة أو نار، فلا أدري إلى أيِّهما يُؤخَذُ بي".

وكان يقول في مرضِ موتهِ: "اللهم إني أُحِبُّ لِقاءَك فأَحِبَّ لِقَائي".

الشرح:

أهمية الحديث: هذا الحديث من الأحاديث التي عليها قواعد الإسلام ومباني الأحكام، وعليه العمدة في تناول الحلال وتجنُّب الحرام، وما أعمَّ نفعه وأعظمه في إيجاد المجتمع المؤمن الذي يحبُّ فيه الفرد لأخيه ما يحب لنفسه، يكره لأخيه ما يكره لنفسه، ويقف عند حدود الشرع مكتفيًا بالحلال المبارك الطيب، فيحيا هو وغيره في طمأنينة ورخاء.

"إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ": كلمة طيب بمعنى طاهر منزّه عن النقائص، لا يعتريه الخبث بأي حال من الأحوال، فهو عزّ وجل طيب في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أحكامه، وفي أفعاله، وفي كل ما يصدر منه، وليس فيها رديء بأي وجه.

إن الله طيب: إِنَّ اسْمَ الطَّيِّبِ لَهُ وَقْعٌ عَظِيمٌ فِي النُّفُوسِ تَرْتَاحُ لَهُ الْقُلُوبُ، لَهُ وَقْعٌ فِي اللِّسَانِ، وَأَثَرٌ فِي الْجَنَانِ، تَسْكُنُ بِهِ الْأَرْكَانُ، حَوَى جَمَالَ الْوَصْفِ وَجَمَالَ الْمَعْنَى؛ فَاللهُ تَعَالَى هُوَ الطَّيِّبُ الَّذِي لَا أَطْيَبَ مِنْهُ، الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ، الْمُقَدَّسُ عَنْ كُلِّ الْآفَاتِ.

✉وَهُوَ الطَّيِّبُ فِي ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ؟ وَهُوَ الطَّيِّبُ الْمُنَزَّهُ عَنِ الشَّرِّ وَعَنِ الظُّلْمِ؛ فَهُوَ -عَزَّ وَجَلَّ- طَيِّبٌ وَأَفْعَالُهُ طَيِّبَةٌ وَصِفَاتُهُ أَطْيَبُ الصِّفَاتِ، وَأَسْمَاؤُهُ أَطْيَبُ الْأَسْمَاءِ.

✉وَاسْمُهُ الطَّيِّبُ وَلَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا طَيِّبٌ، وَفِعْلُهُ طَيِّبٌ، وَلَا يَقْرَبُ مِنْهُ إِلَّا طَيِّبٌ؛ فَاللهُ طَيِّبٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ فَمَا طَابَ شَيْءٌ قَطُّ إِلَّا بِطِيبَتِهِ سُبْحَانَهُ فَطِيْبُ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنْ آثَارِ طِيبَتِهِ.

❁"لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبَاً": فهو سبحانه وتعالى، لا يقبل إلا الطيب من الأقوال، والأعمال وغيرها، وكل رديء فهو مردودٌ عند الله عزّ وجل، فلا يقبل الله إلا الطيب

❍فالطّيب من الأعمال: ما كان خالصاً لله، موافقاً للشريعة.

❍والطيب من الأموال: ما اكتسب عن طريق حلال، وأما ما اكتسب عن طريق محرّم فإنه خبيث.

🖹لا يقبل إلا طيبًا: لا يقبل، ولا يحب ولا يرضى، ولا يثيب من الأعمال والأموال إلا ما كان خالصًا من المفسدة، أو حلالًا.

✉فَلَا يَعْمَلُ الْمَرْءُ الْمُؤْمِنُ إِلَّا صَالِحًا وَلَا يَقُولُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا يَكْتَسِبُ إِلَّا طَيِّبًا وَلَا يُنْفِقُ إِلَّا طَيِّبًا؛ فَاللهُ طَيِّبٌ وَدِينُهُ هُوَ الطَّيِّبُ، وَأَحْكَامُ شَرْعِهِ وَآدَابِهِ وَعَقَائِدِهِ هِيَ الْعَقَائِدُ الطَّيِّبَةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي تَطِيبُ بِهَا النُّفُوسُ، وَتَطْمَئِنُّ لَهَا الْقُلُوبُ، وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ، وَالْعَمَلُ الطَّيِّبُ.

❁"وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمِنِينَ بمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِيْنَ": تَعْلَيةً لشأن المؤمنين، وأنهم أهلٌ أن يوجّه إليهم ما أمر به الرسل، فقال عزّ وجل في أمر المرسلين: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً) فأمر الرسل أن يأكلوا من الطيبات وهي التي أحلها الله عزّ وجل، واكتسبت عن طريق شرعي.

(وَاعْمَلُوْا صَالحَاً) أي اعملوا عملاً صالحاً.

❍فأمرهم بالأكل الذي به قوام البدن، ثم أمرهم بالعمل الذي يكون نتيجة للأكل، لكنه قال:(وَاعْمَلُوا صَالِحَاً) وصالح العمل هو ما جمع بين: الإخلاص والمتابعة.

❍فيه دليل على أن الأكل الطيب من آثاره العمل الصالح.

وقال تعالى في أمر المؤمنين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) كما قال للرسل: (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) فأمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.

✉إذاً نقول: المؤمنون مأمورون بالأكل من الطيبات، والمرسلون كذلك مأمورون بالأكل من الطيبات.

✉سوَّى بينهم في الخطاب بوجوب أكل الحلال.

❁"ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ ..." يعني ضرب النبي -ﷺ- مثلاً لهذا الرجل: "يُطِيْلُ السَّفَرَ" والسفر من أسباب إجابة الدعاء، ولاسيما إذا أطاله.

❁"أَشْعَث أَغْبَرَ": جَعْد شعر الرأس لعدم تمشيطه.

✉يعني أشعث في شعره أغبر من التراب، أي أنه لا يهتم بنفسه، بل أهم شيء عنده الدعاء.

❁"يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ": ومد اليدين إلى السماء من أسباب إجابة الدعاء، كما جاء في الحديث: " إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيْمٌ يَسْتَحِيِيْ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرَاً ".

✉يرفع يديه إلى السماء داعيًا وسائلًا الله تعالى.

❁"يَا رَبِّ يَا رَبِّ": نداء بوصف الربوبية، لأن ذلك وسيلة لإجابة الدعاء، إذ إن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية.

❁"وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ": يعني طعامه الذي يأكله حرام، أي حرام لذاته أو لكسبه.

❁"وَمَشرَبُهُ حَرَامٌ": يعني شربه الذي يشربه حرام، إما لذاته أو لكسبه.

❁"وغُذِيَ بالحَرَامِ": يعني أنه تغذّى بالحرام الحاصل من فعل غيره.

❁ "فَأَنَّى": اسم استفهام، والمراد به الاستبعاد، يعني يبعد أن يستجاب لهذا، مع أن أسباب الإجابة موجودة.

❁"فأنى يُستجاب له": كيف ومن أين يُستجاب لمن كانت هذه صفته؟

📄وهذا للتحذير من أكل الحرام، وشربه، ولبسه، والتغذّي به.

🖉فقه الحديث وما يرشد إليه:

1- الطيب المقبول: إن قول النبي-ﷺ- «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً» يشمل الأعمال والأموال والأقوال والاعتقادات:

✉فهو سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً طاهراً من المفسدات كلها كالرياء والعجب، جَعَلَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الطَّيِّبَ مِيزَانًا لِلْأَعْمَالِ: (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ) [المائدة:100]

✉ولا يقبل من الأموال إلا ما كان طيباً حلالاً، فقد حث -ﷺ- على الصدقة من الكسب الحلال الطيب وقال: «ولا يقبل الله إلا طيباً» أي لا يقبل الله من الصدقات إلا ما كان طيباً حلالاً، لذلك أَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ أَنْ يُنْفِقُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ قَالَ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ) [الْبَقَرَةِ: 267]، وَقَالَ -ﷺ-:"مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ؛ حَتَّى تَكُونَ كَالْجَبَالِ"؛ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا).

✉وَمِنْ طِيبِهِ -جَلَّ وَعَلَا- أَنَّهُ جَعَلَ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِالطَّيِّبِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، قَالَ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-: (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [النور:26]. جَاءَ فِي تَفْسِيرِهَا: الْخَبِيثَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ الْقَوْلِ. وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الْقَوْلِ، لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ الْقَوْلِ.

✉ولا يصعد إليه من الكلام إلا ما كان طيباً، قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:10]، وَقَدْ قَسَّمَ اللهُ تَعَالَى الْكَلَامَ إِلَى طَيِّبٍ وَخَبِيثٍ فَجَعَلَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ هِيَ الطَّيِّبَةُ، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[إبراهيم:24] ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم:26].

✉وَأَهْلُ الْإِيمَانِ هَدَاهُمُ اللهُ إِلَى الْكَلِمِ الطَّيِّبِ، قَالَ تَعَالَى: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) [الحج:24] قِيلَ فِي مَعْنَاهَا: أَيِ الْقُرْآنِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهِ وَبَقِيَّةِ الْأَذْكَارِ الْمَشْرُوعَةِ؛ فَاللهُ هُوَ الطَّيِّبُ، وَكَلَامُهُ طَيِّبٌ، قَالَ -ﷺ-: "أَرْبَعٌ مِنْ أَطْيَبِ الْكَلَامِ، وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنِ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ"؛ (رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ).

✉وَبَيَّنَ النَّبِيُّ -ﷺ-أَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ اتِّقَاءِ النَّارِ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، حَيْثُ قَالَ-ﷺ-: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ"؛(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ)؛ فَمِنْ طِيبِ اللهِ جَعَلَ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ سَبَبًا لِدُخُولِ الْجَنَّةِ؛ فَكُلُّ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ تَنْصَحُ بِهَا أَوْ تُعَلِّمُ بِهَا أَوْ تُبَشِّرُ بِهَا، وَأَعْظَمُ الْكَلِمِ ذِكْرُ اللهِ.

✉ولا يفوز عنده عز وجل إلا المؤمنون الطَّيِّبُونَ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل:32]، وأنَّ الملائكة تقولُ عند الموت: "اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ" رَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، ويسلم الملائكة عليهم عند دخولهم الجنة ويقولون ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:73]، وقد ورد في الحديث عند الترمذي وحسنه "أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ تَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: "طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا".

✉وَوَعَدَ الطَّيِّبُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، قَالَ تَعَالَى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [النحل:97].

🗐وقال ابن رجب في نهاية هذا المعنى العام لقوله-ﷺ-: «ولا يقبل إلا طيباً»: المؤمن كله طيب قلبه ولسانه وجسده بما يسكن في قلبه من الإيمان، وظهر على لسانه من الذكر، وعلى جوارحه من الأعمال الصالحة التي هي ثمرة الإيمان وداخلة في اسمه.

2-كيف يكون العمل مقبولاً طيباً: إن من أعظم ما يجعل عمل المؤمن طيباً مقبولاً طيبُ مطعمه وحلّه، وفي الحديث دليل على أن العمل لا يقبل إلا بأكل الحلال، وأن الحرام يفسد العمل ويمنع قبوله؛ لأن النبي -ﷺ- قال- بعد تقريره «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً» -: «وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ومعنى هذا: أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال وبالعمل الصالح، فما كان الأكل حلالاً فالعمل صالح، فإذا كان الأكل غير حلال فكيف يكون العمل مقبولاً؟

وقد أخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «تليت عند رسول الله -ﷺ- هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً﴾ [البقرة:168] فقام سعدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ، فقال: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أنْ يَجعَلَني مُستَجابَ الدَّعوةِ، فقال النَّبيُّ -ﷺ-: (يا سعدُ، أَطِبْ مَطْعَمَكَ؛ تَكُنْ مُستَجابَ الدَّعوةِ، والَّذي نفْسُ محمَّدٍ بيدِهِ، إنَّ العبدَ لَيَقذِفُ اللُّقمةَ الحرامَ في جَوْفِهِ ما يُتَقبَّلُ مِنهُ عَمَلٌ أربعين يومًا، وأيُّما عبدٍ نَبَتَ لحمُهُ مِن سُحْتٍ، فالنَّارُ أَوْلَى بِهِ). وروى أبو يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام.

3- انتفاء القبول: قد يفيد نفي القبول في بعض الأحاديث النبي -ﷺ- نفي الصحة، ومثاله حديث «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ».

وقد يفيد نفي القبول في كثير من الأحاديث نفي الأجر والثواب، ومثاله حديث "لا تقبل صلاة المرأة التي زوجها عليها ساخط"

قال ابن رجب رحمه الله: "وقد اختلفَ العلماءُ في حجِّ من حجَّ بمالٍ حرام، ومن صلَّى في ثوب حرام، هل يسقط عنه فرضُ الصلاة والحج بذلك؟ وفيه عن الإمام أحمد روايتان. لكن القبول قد يُراد به الرضا بالعمل، ومدحُ فاعله، والثناءُ عليه بين الملائكة والمباهاةُ به، وقد يُراد به حصولُ الثواب والأجر عليه، وقد يراد به سقوط الفرض به من الذمة، فإنْ كان المراد هاهنا القبولَ بالمعنى الأوَّل أو الثاني لم يمنع ذلك من سقوط الفرض به من الذمة، كما ورد أنَّه لا تقبل صلاة الآبق، ولا المرأةِ التي زوجها عليها ساخطٌ، ولا من أتى كاهناً، ولا من شرب الخمر أربعين يوماً، والمراد -والله أعلم- نفي القبول بالمعنى الأوَّل أو الثاني". اهـ.

4- كيف يخرج المسلم من الحرام: يتخلص المسلم من المال الحرام بعد العجز عن معرفة صاحبه أو العثور عليه بالتصدق به، والأجر لمالكه، روي عن مالك بن دينار قال: سألت عطاء بن أبي رباح عمن عنده مال حرام ولا يعرف أربابه، ويريد الخروج منه؟ قال: يتصدق به، ولا أقول إن ذلك يجزئ عنه.

فالصدقة بالمال الحرام، فغيرُ مقبولةٍ كما في صحيح مسلم من حديث ابن عمر، عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-: "لا يقبلُ الله صلاةً بغير طهورٍ، ولا صدقةً من غلولٍ".

وكان الفضيل بن عياض يرى أن من عنده مال حرام لا يعرف أربابه أنه يتلفه ويلقيه في البحر ولا يتصدق به، وقال: لا يتقرب إلى الله إلا بالطيب.

قال ابن رجب: والصحيح الصدقة به، لأن إتلاف المال وإضاعته منهي عنه، وإرصاده أبداً تعريض له للإتلاف واستيلاء الظلمة عليه، وإنما هي صدقة عن مالكه، ليكون نفعه له في الآخرة حيث يتعذر عليه الانتفاع به في الدنيا.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: إذا تصدق بمال حرام فلا تقبل منه؛ لأن الحرام وقع في عين العبادة. انتهى.

والحاصل أن من يفعل المعروف بمال حرام لا يؤجر على ذلك، بل يأثم لتصرفه بما لا يجوز له، وإنما يتصدق به إذا عجز عن رده إلى صاحبه فيتصدق به عنه.

5- أسباب إجابة الدعاء:

أ- إطالة السفر: ومجرد السفر يقتضي إجابة الدعاء، فقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي -ﷺ- قال: «ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتٌ لا شَكَّ فيهِنَّ؛ دَعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المسافرِ، ودعوةُ الوالدِ على ولدِهِ».

وإذا طال السفر كان أقرب إلى إجابة الدعاء لأنه مظنة انكسار النفس بطول الغربة وتحمل المشاق، والانكسار من أعظم أسباب إجابة الدعاء.

ب- حصول التبذل في اللباس والهيئة: قال -ﷺ- في حديث مشهور «رُبَّ أشعثَ أغبر ذي طمرين، مدفوعٍ بالأبوابِ لو أقسمَ على اللَّهِ لأبرَّه». وقد خرج النبي -ﷺ- إلى الاستسقاء متبذلاً متواضعاً متضرعاً.

ت- مد اليدين إلى السماء: وهو من آداب الدعاء، روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي -ﷺ-: «إنَّ اللَّهَ حيِيٌّ كريمٌ يستحي إذا رفعَ الرَّجلُ إليْهِ يديْهِ أن يردَّهما صفرًا خائبتينِ».

وكان النبي -ﷺ- يرفع يديه في الاستسقاء حتى يُرى بياضُ إبطيه، ورفع يديه يوم بدر يستنصر الله على المشركين حتى سقط رداؤه عن منكبيه.

ث- الإلحاح على الله عز وجل: وذلك بتكرير ذكر ربوبيته سبحانه وتعالى، وهذا من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء؛ قالت عائشة رضي الله عنها عن النبي -ﷺ- «إذا قال العبدُ يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ قال اللهُ لبَّيْك عبدي سلْ تُعطَ» الترغيب والترهيب.

لا تَسْأَلَنَّ بُنِيَّ آدَمَ حَاجَةً *** وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ *** وَبُنِيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

ومن تأمَّل الأدعية المذكورة في القرآن وجدها غالباً تفتتح باسم الرَّبِّ، كقوله تعالى: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، وقولهِ: (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) وقوله: (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا). ومثل هذا في القرآن كثير، وقال مالك: "هذه دعوة الأنبياء".

ج-ألاَّ يستعجل العبد في استجابة الدعاء، فإنَّ الله سبحانه أعلم بمصالح عباده، وما من داعٍ إلا ويستجاب له بأن يعطى سؤاله، أو يصرف عنه من الشر مثله، أو يدَّخر له في الآخرة؛ كما ثبت عن النبي -ﷺ- ولذلك نهى النبيّ -ﷺ- عنِ الاستِعْجَالِ في الدُّعَاء.

ح-أن يكون حاضر القلب حال الدعاء، مُقْبِلاً على ربه عند مناجاته في خشوع وسكينة، موقنًا بالإجابة، قال النَّبِيّ -ﷺ-: " ادْعُوا اللهَ وأنتمْ مُوقِنُونَ بالإجابةِ، واعلمُوا أنَّ اللهَ لا يَستجيبُ دُعاءً من قلْبٍ غافِلٍ لَاهٍ". صحيح الجامع

6- ما يمنع إجابة الدعاء: أشار -ﷺ- في هذا الحديث إلى أن التوسع في الحرام أكلاً وشرباً ولبساً وتغذية يمنع إجابة الدعاء؛ وقوله -ﷺ- «فأنَّى يُستجاب له؟» استفهام وقع على وجه التعجب والاستبعاد، وليس صريحاً في استحالة الاستجابة ومنعها بالكلية.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال -ﷺ-: "لَيَأْتِيَنَّ على الناس زَمانٌ لا يُبَالي المرءِ بما أَخَذَ المال، أَمِنْ الحلال أَمْ مِنْ حَرام" صحيح البخاري

وعن وهب بن مُنبِّه قال: "من سرَّه أنْ يستجيب الله دعوته، فليُطِب طُعمته"، وعن سهل بن عبد الله قال: "من أكل الحلال أربعين يوماً أُجيبَت دعوتُه"، وعن يوسف بن أسباط قال: "بلغنا أنَّ دعاءَ العبد يُحبَس عن السماوات بسوءِ المطعم".

وكما أن فعل المعاصي يمنع من إجابة الدعاء، ففعل الطاعات يكون موجباً لاستجابة الدعاء.

وقال وهب بن مُنبِّه: "مَثَلُ الذي يدعو بغير عمل، كمثل الذي يرمي بغير وَتَر". وعنه قال: "العملُ الصالحُ يبلِّغُ الدعاء"، ثم تلا قوله تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه).

وقال بعض السَّلف: "لا تستبطئ الإجابة، وقد سددتَ طرقها بالمعاصي". وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

نحن نَدْعُو الإله في كُلِّ كَربٍ ثُمَّ نَنساهُ عِندَ كَشفِ الكُروبِ

كَيْفَ نَرجُو إجابةً لدُعاءٍ قَدْ سَدَدْنا طريقَها بالذُّنوب.

وقد حُكي أن إبراهيم ابن أدهم، مر بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه، وقالوا له: يا أبا إسحاق ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء: الأول: عرفتم الله ولم تؤدوا حقه. والثاني: زعمتم أنكم تحبون رسول الله -ﷺ- وتركتم سنته. والثالث: قرأتم القرآن فلم تعملوا به. والرابع: أكلتم نعم الله ولم تؤدوا شكرها. والخامس: قلتم إنَّ الشيطان عدو لكم ولم تخالفوه. والسادس: قلتم إنَّ الجنة حق ولم تعملوا لها. والسابع: قلتم إنَّ النار حق ولم تهربوا منها. والثامن: قلتم إنّ الموت حق ولم تستعدوا له. والتاسع: انتبهتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم. والعاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا.

7- الدعاء هو روضة القلوب، وهو أنس الأرواح؛ وهو صلة بين العبد وربه، به تستجلب الرحمات، وتفرج الهموم، وتزول الكربات، وتقضى الحاجات، وتبلغ المنازل، ومن عظيم شأن الدعاء، وعلو مكانته، أن جعله رسول الله -ﷺ- أصل العبادة ولبها، ففي سنن الترمذي قال -ﷺ-: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» لأن الداعي إنما يدعو الله عند انقطاع أمله ممن سواه، وذلك حقيقة التوحيد والإخلاص، ولا عبادة فوقها.

ويقول يحيى بن معاذ: الطاعة خزانة من خزائن الله، إلا أن مفتاحها الدعاء، وأسنانه لقم الحلال.

8- ويرشد الحديث إلى الحث على الإنفاق من الحلال، والنهي عن الإنفاق من غيره.

9- أن من أراد الدعاء لزمه أن يعتني بالحلال في مأكله وملبسه حتى يُقبل دعاؤه.

10- يقبل الله من المؤمنين الإنفاق من الطيب وينميه، ويبارك لهم فيه

المراجع:

1. الوافي في شرح الأربعين النووية: د. مصطفى البغا: محي الدين مستو.
2. الأربعين النووية شرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله بتصرف.
3. الجواهر اللؤلؤية في شرح الأربعين النووية: محمد عبد الله الجرداني.
4. شرح الأربعين النووية: الإمام النووي.
5. الحلال الطيب شرط القبول: الشيخ محمد بن مسعود العميري الهذلي.
6. اسم الله الطَّيب: د صالح بن مقبل العصيمي.